

المحاضرة رقم: 01

الإعجاز اللغوي: مفهومه، أنواعه والحكمة منه.

أولاً: مفهوم الإعجاز اللغوي:

نتحدث في البدء عن معنى إعجاز القرآن الكريم لنتطرق بعد ذلك إلى إعجازه اللغوي

01- معنى الإعجاز:

أ- لغة:

مدار مادة (عجز) في اللغة على التأخر عن الشيء، والقصور عن فعله، ومنه دلالة الإعجاز على الفوت والسبق، وعدم القدرة على الإدراك، يقول أحمد بن فارس (329 هـ) في مادة (ع ج ز): " العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء.

فالأول عَجَزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي ضعيف...، ويقولون: عَجَزَ بفتح الجيم. وسمعتُ عليَّ بن إبراهيم القطان يقول: سمعتُ ثعلباً يقول: سمعتُ ابن الأعرابي يقول: لا يقال عَجَزَ إلا إذا عَظُمَتْ عَجِزَتُهُ،... ويقال: فلانٌ عاجزٌ فلاناً، إذا ذَهَبَ فلم يُوصَلْ إليه. وقال تعالى: ﴿يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ [سبأ 38] ¹.

وفي المعجم الوسيط: " عَجَزَ عن الشيء عَجْزاً، وعَجَزَانَا: ضعف ولم يقدر عليه، ... أعجز فلان: سبق فلم يدرك، وأعجز الشيء فلانا فاته ولم يدركه، ويقال: أعجزه فلان، وأعجزه: صيره عاجزاً وأعجز فلانا: وجده عاجزاً.

عاجز فلان ذهب فلم يوصل إليه ولم يقدر عليه. يقال طلبته فعاجز سبق فلم يدرك وعاجز إلى فلان: مال إليه. يقال: عاجز إلى ثقة، وعاجز عن الحق إلى الباطل. وعاجز فلانا: سابقه ².

1 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، 1979، مادة: عجز.

2 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط: 04، 2004، مادة: عجز

ب- اصطلاحا:

لم يرد مصطلح " الإعجاز " أو " المعجزة " لا في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة، وما ورد في هذا المعنى، نجد:

- لفظ " البينة " كما في قوله ﷺ: ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾¹
 - لفظ " الآية " التي حمل بها الله ﷻ الرّسل لمجابهة أقوامهم، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لأن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾².
 - لفظ " الرهان "، كما في قوله ﷻ: ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾³.
 - لفظ " السلطان "، كما في قوله ﷻ: ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ... فأتونا بسلطان مبين ﴾⁴
- ظهر مصطلح " الإعجاز " في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، وذلك عندما ظهر البحث في قضية إعجاز القرآن الكريم، ومن تعريفاته التي وردت في كتب الإعجاز، نجد:
- الإعجاز أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله⁵.
 - إعجاز القرآن: مركب إضافي، معناه إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، وهذا التعجيز ليس مقصودا لذاته، بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به صدق⁶.
 - تأدية المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق⁷.

1 - الأعراف، 73.

2 - الأنعام، 109.

3 - القصص، 32.

4 - إبراهيم، 10.

5 - ينظر: السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج4، ص: 03

6 - ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي،

ج: 01، ص: 259.

7 - الجرجاني، التعريفات، ص: 80

ج- شروط الإعجاز:

لابد من توفر ثلاثة شروط في الأمر المعجز حتى يتم الإعجاز ويتحقق التسليم به، وهذه الشروط هي:

- أن يوجد التحدي به: إذ عليه أن يدفع إلى المعارضة من الخصم، وبغير هذا لا يكثر أحد لدعواه، على خطورتها.

- أن يوجد المقتضي للمعارضة من الخصوم: أين يدافع الخصوم عن معتقداتهم، وما ورثوه عن آبائهم، وما تواضعوا عليه من نظم حياتهم، وقواعد عباداتهم ومعاملاتهم. فمن جاء بدعوة تعارض هذا كله، وتسفه كل ما هم عليه، وترميهم بالضلال والغي، كان من الطبيعي أن توجد البواعث لمعارضته، وخصوصا عند تحديهم .

- أن تنتفي الموانع من معارضته: فلو ظهر من يدعي النبوة من غير العرب أو في غيرهم، وادعى أن معجزته كتاب عربي أنزل عليه، وهو يتحدى بعضا من العرب أن يأتوا بمثله، ولم يتقدم أحد لمعارضته، لم يثبت الإعجاز بذلك. وهذه الشروط الثلاثة قد توفرت في إعجاز القرآن.

د- وجوه إعجاز القرآن:

اعتنى العلماء قديما وحديثا بقضية إعجاز القرآن الكريم عناية كبيرة، وقد تباينت آراؤهم في تحديد وجوه إعجازه، فمنهم من جعلها وجها واحدا ومنهم من عدّها عشرة وأكثر، ويمكن إجمالها فيما يلي:

- معجز بالصرفه وهذا مذهب أبي إسحاق النظام ومن تابعه، وقد رد كثير من العلماء بفساد هذا الرأي.

- البلاغة، فهو معجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها مثيل.

- تضمُّنه البديع الغريب المخالف لما عهد في كلام العرب من الفواصل والمقاطع.

- الإخبار عن المغيِّبات المستقبلية التي لا يُطلع عليها إلا بالوحي، أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدأ الخلق.

- تضمنه للعلوم المختلفة والحكم البليغة.
 - معجز في ألفاظه وأسلوبه، فالحرف الواحد في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة.
 - معجز في بيانه ونظمه النظم، فنظم القرآن وتأليفه هو الوجه الذي تميز من بين سائر الكلام.
 - معجز في تشريعه وصيانيته لحقوق الإنسان.
 - معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيرا منها ولا يزال¹.
- وهذه الوجوه الكثيرة، يمكن حصرها في أربعة وجوه وهي كما يلي:
- الإعجاز البياني.
 - الإعجاز العلمي.
 - الإعجاز التشريعي.
 - الإعجاز الغيبي.
- ونجد أن ما استأثر باهتمام أغلب العلماء وسيطر على مباحث المتكلمين في الإعجاز هو الإعجاز البياني.

هـ-الحكمة من الإعجاز في القرآن

الحكمة من وجود الإعجاز في القرآن الكريم يلخصها قول الله ﷻ: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾²، فأنواع الإعجاز التي يتضمنها القرآن الكريم وما تحمله من فصاحة لغوية وحكم تشريعية وحقائق علمية وأخبار غيبية كلها إشارات ودلالات تؤكد لمن هو بحاجة لتأكيد أن القرآن الكريم حق وأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

¹ - ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، د ط، د ت، ص: 255، 254.

² - فصلت،

كما أن الحكمة من الإعجاز القرآني تتمثل في تثبيت وطمأنة قلوب المؤمنين بهذا الدين، وفي مساعدتهم على محاجة غيرهم، وإقناعهم بصحة الإسلام وصدق رسالته، خاصة أولئك الذين يحتاجون إلى دلائل مادية وبراهين علمية. ومن حكمة الإعجاز أيضا أنه يفتح الباب أمام المسلمين للبحث والاستكشاف في مختلف الظواهر والعلوم ويمدهم بالإشارات اللازمة للانطلاق في هذا المجال¹.

و- حركة التأليف في إعجاز القرآن الكريم:

لم يخل عصر من العصور قديما ولا حديثا من الحديث عن قضية الإعجاز القرآني، فيُذكر من القدامى أن أبا عُثمان الجاحظ (ت 255هـ) هو أول من تناول قضية الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك في القرن الثالث الهجري، من خلال كتابه الموسوم "نظم القرآن"، غير أن هذا المؤلف مفقود، غير أن من جاء بعده يذكره، ومنهم الخطابي الذي يقول: "وقد صنف الجاحظ في "نظم القرآن" كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله"².

يأتي بعده أبو عبد الله الواسطي (ت 306هـ)، في أواخر القرن الثالث الهجري بكتابه "إعجاز القرآن"، ويرى البعض أنه أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه، والكتاب أيضا مفقود، وما وصل إلينا فمن عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، الذي بلغنا عنه أنه شرح هذا الكتاب شرحا كبيرا سماه (المعتضد) وشرحا آخر أصغر منه.

ثم في القرن الرابع الهجري، يؤلف أبو الحسن الرماني (ت سنة 386هـ) رسالته "النكت في إعجاز القرآن"، تحدث فيها عن إعجاز القرآن الكريم من خلال بيان نكت البيان في القرآن، بمعنى بيان اللطائف والأسرار الخفية التي تدرك بالفطنة وحسن التأمل، ذكر فيها سبعة أوجه للإعجاز، هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة.

¹ - ينظر: الموقع الإلكتروني: السبيل، <http://ar.assabile.com/a/al-i3jaz-fi-al-quran-al-karim-140>

² - إعجاز القرآن للباقلاني ص 24

استغرق الرماني معظم رسالته في الوجه الرابع " البلاغة "، ثم عاد في صفحاتها الأخيرة إلى بيان باقي الوجوه بإيجاز¹.

وفي القرن نفسه ألف حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388هـ) كتابه "بيان إعجاز القرآن" وهو يرى فيه أن إعجاز القرآن نابع من ذاته لما حواه من أجناس الكلام الثلاثة: البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرسل، فصار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني².

ثم في أواخر القرن الرابع الهجري صنف القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت 403هـ) كتابه "إعجاز القرآن"، وهو - بهذا العمل - يعتبر أول من كتب كتاباً في الإعجاز بطريقة مستقلة، وما كتب قبله كان في إطار بيان معاني الإعجاز في رسائل عامة أو مقدمات مؤلفات أو بيان.

تحدث "الباقلائي" في بداية كتابه عن المعجزة، وقرر أن القرآن هو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى، وهناك معجزات أخرى، ومعجزة القرآن هي معجزة تحدي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمعجزات الأخرى. والإعجاز يرجع في نظر القاضي الباقلائي إلى أمور ثلاثة:

- إنباؤه عن الغيب.
- أمية الرسول صلى الله عليه وسلم.
- بداعة النظم، وهي ترجع عنده إلى أمور كثيرة ذكرها في كتابه³.

لا يسع المجال لذكر ما أورده القدامى جميعاً في إعجاز القرآن الكريم، ولهذا نكتفي بما تمت الإشارة إليه

1 - ينظر: أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:3، د ت.

2 - أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:3، د ت

3 - ينظر: أبو بكر محمد الباقلائي، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، د ط، د ت.

02- الإعجاز اللغوي:

إن المتأمل في الدراسات التي تناولت الإعجاز القرآني لدى القدماء وعند المحدثين ليجد أن ما يطلقونه عليه هو مصطلح " الإعجاز البياني" وليس " اللغوي" ولا نجد هذا الأخير عندهم إلا نادرا، ولعل مرد ذلك إلى عدم اتضاح معالم المصطلحين، وهذا يظهر في:

- التداخل الحاصل في مباحث الميدانيين، وأغلب من كتب في الموضوع استعمل مصطلح " الإعجاز البياني".

- بعض الدراسات لا تتطرق مطلقا للإعجاز اللغوي، وتكتفي بالتنويه بالإعجاز البياني¹. والمتأمل أيضا يجد إشارات كثيرة تعكس وعي الدارسين بمفهوم الإعجاز اللغوي، نذكر من ذلك قول مصطفى صادق الرافعي: " ثم تدبر الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصالتها ولحونها، ومناسبة بعضها لبعض في ذلك، والتغلغل في الوجوه التي من أجلها اختير كل لفظ في موضعه، أو عدل إليه عن غيره، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها، ومن حيث دلالاته في نفسه، وملاءمته لغيره، ثم النظر في روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصيغ التي أقيمت عليها اللغة ووجه اختيار الحرف أو الصيغة...، فإن كل ذلك في القرآن على أتمه"² والشيخ الرافعي - رحمه الله- يبين أن من إعجاز القرآن الكريم ألفاظه في كل ما تتميز به نفسها وفي ارتباطها بغيرها في السياق (المناسبة)، ولو استبدل لفظ بآخر في معناه ما أغنى عنه في ذلك، ولا يكون ذلك في القرآن الكريم.

ونجد من المحدثين أيضا من يقر ذلك حين يقول: " وحيثما قلب الإنسان بصره في القرآن وجد أسرار من الإعجاز اللغوي، يجد ذلك في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه حين يسمع

1 - العيد جديق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، إشراف: د/ عزيز عدمان، جامعة الجزائر 01، السنة الجامعية: 2010/2011، ص: 34.

2 - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، راجعه: الشيخ زياد حمدان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت/لبنان، ط: 01، 2004، ص: 205

حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغمّائها، وفواصلها ومقاطعها،... ويجد ذلك في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه،... ويجد ذلك في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تطيقه عقولهم، ... ويجد ذلك في إقناع العقل وإمتاع العاطفة بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان،...¹.

مما سبق ذكره يتبين أن مفهوم الإعجاز اللغوي عند المحدثين يتمحور أساساً حول "المفردة القرآنية في تمظهراتها المختلفة"، ومنه يمكن أن نقف من ذلك على تحديد مفهوم لمصطلح الإعجاز اللغوي كما يلي:

الإعجاز اللغوي: " هو العلم الذي يهتم بإبراز إعجاز المفردة القرآنية، من حيث شكلها ومضمونها وغاياتها"².

إن هذا التعريف يجعلنا ندرك أن موضوعات الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم تدور كلها في فلك المفردة القرآنية بكل ما يتعلق بها منذ انتقائها من المعجم إلى استعمالها في موضعها مع كل ما تتسم به من خصائص صوتية و صرفية وبلاغية، وستأتي باقي المحاضرات بتفصيل كل ذلك.

1 - مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص: 259.

2 - العيد جديق، جهود أهل السنة والجماعة في الإعجاز اللغوي والبياني للقرآن الكريم، ص: 37.